أمثلة من الترجمة

Lutz van Dijk

Afrika
Geschichte eines bunten Kontinents

Peter Hammer Verlag 2015

ISBN: 978-3-7795-0527-3
صفحات 89-92& 99-106& 242-245& 260-265

لوتس فان دايك

إفريقيا

قصة قارة متنوعة

ترجمة د. هبة الله فتحي

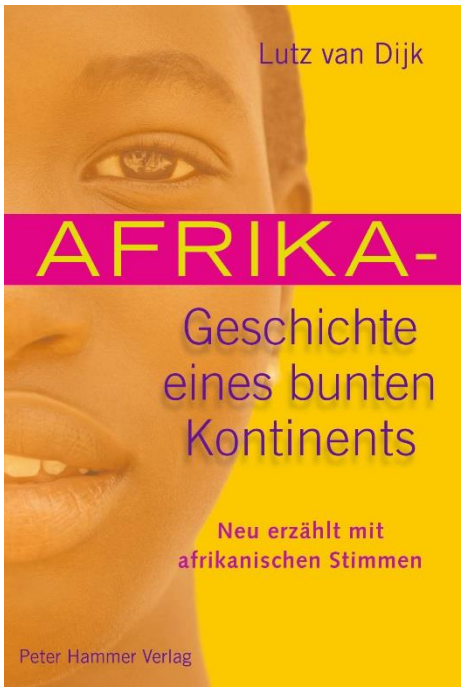

© 2016 Litrix.de

صفحات 89–92

قمع إفريقيا، حول تقسيم الأوروبيين لقارةٍ فيما بينهم (1500–1945 تقريبًا)

إفريقيا منذ قرابة خمسمائة عام: لم تكن بالقطع فردوسًا، كانت في معظم أنحائها قارة خاوية من البشر بأراضٍ صحراوية جرداء ومناطق استوائية مليئة بالحشرات الناقلة للأمراض، تعذر استيطان البشر بحيواناتهم المنزلية في هذا المناخ. في الأغلب سكن في عام 1500 أقل من خمسين مليون نسمة القارة (تخطت اليوم المليار نسمة).

كان لظاهرة الرق وجود دائم، ترجع أول التقارير إلى الجيوش المصرية التي عادت من غزواتها مصطحبة الأسرى الذين أُستخدموا كعمال عبيد في بناء الأهرامات، كما جرت أيضًا عمليات استرقاق متبادلة بين شعوب البانتويين وذلك عقب المواجهات الحربية بينهم. كان التجار العرب من الشمال هم أول من عقدوا صفقات كبرى بأطفال مستعبدين ونساء وفي الأغلب شبان من وسط إفريقيا.

ومع ذلك: لا وجه للمقارنة بين ظاهرة الرق في معظم المجتمعات المدنية الأولى في إفريقيا وصفقات الرق اللاحقة للعرب والأوروبيين. كان العبد عضوًا في العائلة وله فرص مختلفة لاسترداد حريته. عملت مجتمعات عديدة على نماذج حضارية لا يستهان بها لا تقوم على الاستغلال فحسب.

سبق الصينيون الأوروبيين منذ عام 1415 إلى الإبحار على سفن تجارية ضخمة – بتكليف من القيصر الصيني – متجهين إلى ساحل شرق إفريقيا، قاموا بتبادل البضائع والعودة دون أي تطلع إلى اختراق الأراضي.

انشغلت أوروبا قبلها بعقود انشغالًا كبيرًا بالصراعات بين الممالك المختلفة والإمارات، أرسل الأوروبيون رعاياهم إلى حروب عبثية أو جعلوهم يكدحون كعبيد من أجل رفاهيتهم الخاصة. زاد على ذلك في القرن الرابع عشر ظهور وباء الطاعون – الذي أطلق عليه "الموت الأسود" – والذي كان ينتقل في ظروف صحية فقيرة من الجرذان إلى البشر، ثم بين البشر أنفسهم في شكل طاعون الرئة. توفى خلال سنوات قليلة ثلث سكان أوروبا بسبب الطاعون، أي نحو خمسة وعشرين مليون نسمة. كانت أوروبا عام 1500 أسوأ حالًا من إفريقيا، أراد الكثير من البشر الرحيل وكان هناك حكام وتجار يبحثون عن مصادر جديدة من أجل سلعهم الكمالية.

أول من وصل إلى ساحل غرب إفريقيا بسفنه الشراعية في منتصف القرن الخامس عشر هم البرتغاليون، تبعهم لاحقًا تجار أوروبيون آخرون ومبشرون، ثم بعد ذلك أيضًا جنود وجيوش كاملة.

ينتحل الأوروبيون مع مرور الزمن دور المستغلين والقامعين في مناطق أخرى من العالم أيضًا، كأمريكا ومناطق شاسعة من آسيا. ولكن لم يجرِ في مكان آخر سجن كل هذه الملايين من البشر وتشتيت العائلات وتدمير

© 2016 Litrix.de

مجتمعات حياتية وريفية قائمة، لنقل أطفال ونساء ورجال لآلاف الكيلومترات من أجل إجبارهم على حياة العبيد دون أي أمل في العودة.

نفهم تدريجيًا أن العواقب الكارثية للسرقة المنظمة للبشر في إفريقيا ستتجاوز التخلص من المستعمر الأوروبي والاستقلال الشكلي للدول الإفريقية الحديثة بمراحل. لم يأتِ بعد استيعاب صدمة الاستعباد والأشكال المختلفة لسلب حقوق البشر وإذلالهم في إفريقيا من جانب الأجيال التالية بالقدر المطلوب، ليس في إفريقيا فحسب، بل أيضًا في أوروبا وأمريكا.

يشمل ذلك أيضًا اعترافًا صادقًا بهذا الظلم في أوروبا وأمريكا وفهما للإيديولوجيات التي و وُظِفَتْ حينها واليوم لتبرير عدم المساواة والإساءة إلى بشر من هم ليسوا ذوي بشرة بيضاء. ما زالت حتى اليوم حملات المعونة الغربية من أجل "بشر فقراء في إفريقيا" تحمل ملامح من الوصاية وتخشى كثيرًا أن تسمي أسباب هذا الظلم بأسمائه.

يجب على البشر في إفريقيا التعامل مع الحقيقة المرة المتمثلة في أن الأبعاد الشنيعة لتجارة الرق لم تكن ممكنة دون التقاء المصالح مع التجار العرب والأفارقة — وفي أحيان كثيرة مع القادة السياسيين أيضا– الذين اغتنوا على حساب أهالي بلادهم. إثارة التساؤلات حول النظم الاستبدادية في إفريقيا، والتي أدت جوهريًا إلى هذه الأبعاد الكارثية، هي مهمة حيوية لم تبدأ بعد.

يعد الاثنان دروسًا مستعصية.

إنها فترة وجيزة – من منظور تاريخي – التي اتخذ خلالها الأوروبيون في إفريقيا دور المستغلين والقامعين وقاموا بتقسيم معظم القارة — باستثناء مناطق قليلة — إلى مستعمرات فيما بينهم، دون أدنى مراعاة لسكانها، تمامًا مثلما يتعامل المجرم مع الغنيمة المنهوبة.

لا نعرف إلا القليل عن الأشكال الكثيرة لمقاومة القادة الأفارقة ضد المستعمر الأوروبي: من التأقلم، مرورًا بمحاولات حل الصراعات سلميًا، إلى الكفاح الشجاع الذي كانت تشوبه الحيرة. ما زال الكثير من كتب التاريخ الأوروبية تحكي باستفاضة عن مذابح الأوروبيين من أجل "حماية نسائهم وأطفالهم في المستعمرات". أما أشكال دفاع الأفارقة عن أرضهم المسلوبة يتم وصفها بالمذابح، وليس قتل نسائهم وأطفالهم شيئًا جديرًا بالذكر.

من أجل منع تصاعد حدة الصراعات بين الأوروبيين في أوروبا، دعا المستشار الألماني أوتوفون بيسمارك القوى الأوروبية إلى لقاء في برلين عام 1884. جرى بذلك الإعداد لتقسيم القارة الإفريقية على طاولة المفاوضات. تم في هذا السياق إقصاء ممثلي الشعوب الإفريقية. على الرغم من شعور الأوروبيين الطاغي بالسلطة ونشرهم للذعر والفقر في إفريقيا على مدار عقود تالية: لم تدم حقبة الاستعمار في إفريقيا طويلًا، وإن كانت عواقبها قد تركت آثارًا عميقة في الواقع ظلت ظاهرة حتى اليوم.

إن الاتفاقات التي عقدت في برلين والحدود التي رُسمت دون أدنى مراعاة للقرابة العرقية، ظلت في شكلها الجوهري قائمة حتى اليوم. مع حلول منتصف القرن الماضي على أقصى تقدير أُضطر حتى أكثر المستعمرين قناعة إلى الاعتراف بأنهم لن يصمدوا على المدى البعيد. زادت قوة المعارضة لمجموعات مختلفة من المقاومة الإفريقية، كما

© 2016 Litrix.de

زادت تكلفة الإبقاء على إدارة استعمارية. إن الطريقة التي انسحب بها الأوروبيون في النهاية كانت في كثير من الأحوال بنفس درجة السوء لقدومهم إلى القارة الإفريقية، وإن غلب على المشهد حجب النوايا الفعلية لهذا الانسحاب.

بُذل في معظم الأحيان كل المجهود لمساعدة سياسيين أفارقة فاسدين من أجل الوصول إلى سدة الحكم، وكانوا غالبًا بمثابة دمى خشبية تسخر نفسها ولأغراض أنانية — وعلى الرغم من ادعاء "الاستقلالية"- لخدمة مصالح القوى الأوروبية ولاحقًا الأمريكية والروسية أيضًا. يُشار بسخرية في هذا السياق إلى أن قدرة الأفارقة على "إدارة شئونهم" محدودة. من قام بكشف لعبة الإمبريالية الجديدة وكان يقاوم التأثير الاقتصادي والسياسي من الخارج بعد التحرر الرسمي من قبضة الاستعمار، كان يتعرض ولأكثر من مرة لضغط ممنهج، وحينما يفشل ذلك كان يُقتل بدم بارد. إن قمع القوى الأوروبية لإفريقيا بدأ قبل أكثر من خمسمائة عام، بوصول البرتغاليين إلى غرب إفريقيا.

صفحة 99–106

صيد البشرية: كوارث الرق

أول البشر الأفارقة الذين أُختطفوا ورُحِلوا إلى أوروبا كانوا في البداية "نماذجَ غريبة" تثير الفضول. في دوائر الأغنياء بالبرتغال وإسبانيا – ولاحقًا بإنجلترا وفرنسا وألمانيا- أُعتبر في فترة ما وجود "زنجي"[1] ضمن مجموعة الخدم أمرًا محمودًا، ولكن كانت لهم آنذاك نفس الحقوق مثل سائر أفراد الخدم. لم تكن قد تبلورت بعد أيديولوجية عنصرية تصنف "الزنوج" على أنهم "أقل قيمة". كانوا فقط "مختلفين"، يثيرون الفضول وحالات "طريفة". كان من الممكن أن يدرس شبان من الكونغو في البرتغال، ويصنعون بشكل استثنائي حياة مهنية ناجحة. في عام 1550 تقريبًا كان عشرة بالمائة من سكان البرتغال من الأفارقة، ولم يكن جميعهم يعمل كخدم على الإطلاق.

عرفت معظم المجتمعات الإفريقية قبل وصول الأوربيين فكرة الرق كغنيمة تؤخذ بعد الحروب، أو سمعت عن تجارة الرق لدى العرب. ولكن كان الأمر يتعلق بفرد في الأسرة له حقوق محدودة وليس بقطعة أرض مسموح بإساءة معاملتها أكثر من البهائم .

------ يكتب المؤرخ يوسف كي–زربو (1922–2006) من غرب إفريقيا:

كان يتم عامة إدماج العبد سريعًا في الأسرة..ترتب على ذلك امتلاكه لحقوق المواطن، فضلًا عن حقوق الملكية، لأن وسائل التحرير المتاحة كانت متعددة، منها الكثير الذي جاء بمبادرة من العبد ذاته. ففي الكونغو على سبيل

[1] وضعت بعض الكلمات بين علامتي تنصيص لأنها جاءت بشكل نصي في استشهادات تاريخية. يمكنها أن توضح أسلوب تفكير البشر وقتها ولذلك تم الاحتفاظ بها على حالتها وذلك على الرغم من مضمونها العنصري، وأنه يجب عدم استخدامها اليوم.

© 2016 Litrix.de

المثال نجد عبيدًا كانوا يملكون عبيدًا..ولذلك من المضحك الزعم بأن الأوروبيين قد واصلوا ممارسات كانت موجودة من قبل.

جاء التغيير الجذري حينما كان الأوروبيون في احتياج ملح إلى عمال للعمل في المزارع الضخمة التي نشأت في وقت وجيز في شمال ووسط وجنوب أمريكا لزراعة القطن والتبغ وقصب السكر، وذلك بهدف رفع المكاسب الضخمة والسريعة لأعلى نسبة ممكنة. خرج سكان أمريكا الأصليون من دائرة الاختيار، إذْ لم يسلبو منهم أرضهم فحسب، ولكنهم قضوا عليهم ودمروا روحهم المعنوية جراء الإبادة الجماعية والأمراض الأوروبية التي أصابتهم، فصاروا غير "مؤهلين" في عيون أسيادهم.

تشكلت في وقت وجيز مافيا مكونة من تجار أوروبيين وأفارقة وعرب، وقدموا باحتقار مفزع مفهومًا جديدًا تمامًا عن العبودية. لم يعد الأمر يتعلق ببشر أقل وضعًا أو أقل حقوقًا، أو ربما دون حقوق على الإطلاق، بل بسلعة يسعون إلى صيدها ونقلها وبيعها بأكبر المكاسب الممكنة. في وقت قريب هاجم الأوروبيون الآخرون الاحتكار البرتغالي، فتجمعت إلى جانب سفن القرصنة أساطيل الإسبان والإنجليز والفرنساويين والهولنديين – ولفترة أيضًا السويديين والدانماركيين والألمان – ليتصارعوا فيما بينهم على عقد الصفقات.

نجح الإسبان لفترة في وضع نظام يتحكمون من خلاله في أعداد الدخول، وقاموا بعد ذلك ببيع هذه الحقوق لدول أخرى أو لتجار آخرين. لم يتم تسجيل البشر وقتها على أنهم أفراد بل سُجلوا بالأطنان. أصدر أول تصريح (,,Asiento'') على هذا النحو في عام 1518. تسمح وثيقة ترجع إلى عام 1696 لشركات برتغالية في غينيا باستيراد "10000 طن من الزنوج" سنويًا.

سيجد من يزور ساحل غرب إفريقيا اليوم القلاع والحصون المجهزة بالمدافع التي كان الأوروبيون يدافعون بها عن تجارتهم فيما بينهم، وليس ضد الأفارقة. تصطف جنبًا إلى جنب على طول الساحل في صمت لتكون شاهدة على زمن وحشي. جُمِعَت في هذه الحصون الملايين من الأطفال والنساء والرجال الأفارقة قبل نقلهم عبر البحر، ليلقوا من هنا آخر نظرة على قارتهم. تنطلق تقديرات متواضعة من ثمانية ملايين إفريقي وإفريقية تم ترحيلهم في ظروف مذلة، ولكن كان عددهم في الأغلب خمسة عشر مليون شخص. أما الذين قتلوا في عملية صيد البشر هذه أو من توفوُّا في عملية النقل عبر البحر التي دامت لأسابيع، فما من إحصائية ترصد أعدادهم.

------ لم يكن أولاودة إكيانو (1745–1797) هو أول عبد حالفه النجاح في تحرير نفسه وهو في الحادي والعشرين من عمره فحسب، بل هو أول من كتب كتابًا عن حياته صدر في إنجلترا عام

© 2016 Litrix.de

1789 وكان له فضل عظيم في محو ظاهرة الرق. يتذكر هنا حاله لحظة وصوله وهو صبي مسجون في الحادية عشرة من عمره إلى سفن الرق:

" أمسك بي بعضهم وهزوني بأيديهم ليروا مدى صلاحيتي.كنت مقتنعًا بأنني وصلت إلى عالم من الأشباح الشريرة وأنهم قطعًا سيقتلونني...حينما ألقيت نظرة على باقي سطح السفينة ..رأيت عددًا كبيرًا من الزنوج مكبلين بسلاسل ولا تعبر وجوههم إلا عن البؤس والانهزام. وصل العذاب والهول إلى درجة تفوق طاقتي وجعلني لا أشكك في القدر الذي ينتظرني، فسقطت مغشيًا عليَّ. وحينما أفقت تعرفت على وجوه بعض الحراس الزنوج الذين أحضرونا إلى هنا، ويبدو أنهم حصلوا على أجرهم الآن. حاولوا معي – بصفتي الأصغر عمرًا – أن يشجعوني، ولكن دون فائدة.

سألتهم عن هؤلاء الرجال البيض بشكلهم المخيف ووجوههم الحمراء وشعرهم الطويل، وإن كانوا سيأكلونني. أجابوا بأن هذا لن يحدث وأعطاني واحد من المجموعة خمرًا. تناولت القليل منه ولكنني فزعت مجددًا من طعمه لأنني لم أجرب أبدًا هذا المذاق في فمي. غادر الحراس الزنوج السفينة بعد قليل...وخلفوني في حيرة شديدة من أمري."

(النص أسفل الصورة: أولاودة إكيانو الذي عُرِفَ لاحقًا تحت اسم جوستافوس فاسا وهو مرسوم هنا عام 1789 بعمر الثالث والأربعين في صورة طلبها من أجل سيرته الذاتية المشهورة.)

نقلت سفن الرق هذه بطاقم يشمل ثلاثين بحارًا وخمسة ضباط وعددًا من العبيد قد يصل إلى الخمسمائة، وذلك في أحلك الظروف ولفترات تتراوح بين خمسة أسابيع وحتى ثلاثة أشهر.حاول عدد لا بأس به من هؤلاء المساجين الفرار حتى آخر لحظة، أو حتى الانتحار في لحظات بدا فيها الهروب مستحيلًا. فضل بعضهم القفز في البحر بدلًا من مواصلة المعاناة، أما الذين فقدوا الأمل في أي شيء فحاولوا الموت بالإضراب عن الطعام.

يحكي قبطان إنجليزي لسفن نقل الرق أن الإضراب عن الطعام كان يُعَاقَب على أنه جريمة كبيرة *"بفتح فم المضرب بفحم مشتعل يوضع على شفاهه، ثم يتم وضع قمع معدني في الحلق لإجباره على تناول الطعام."* ينصح طبيب على السفينة في هذا الوقت: *"الأفضل هو مغادرة الساحل الإفريقي ليلًا، لأن معظمهم يدرك بذلك ابتعادهم عن أرض الوطن في اليوم التالي، فلا يسبب العويل والصراخ الهيستيري الذي يحدث غالبًا – وخاصة من جانب الإناث – في إثارة البلبلة لدى الشحنات الأخرى."*

© 2016 Litrix.de

حاول العبيد في حالات قليلة العصيان وسط البحر، فعادة ما كان يُقْمَع أي تمرد سريعًا ويُلقى بزعماء التمرد بعد تعذيب فظيع في البحر. يشكو قبطان من هذا العصر أن عصيانًا أدي إلى *" أن ثمانين زنجيًا متمردًا من شحنته اضطروا إلى رميهم بالرصاص والإلقاء بهم في البحر، كان الأفظع هو أن عددًا كبيرًا من باقي الشحنة قد أصيبوا أثناء لحظات القتال فلم تتورم وتتلوث جروحهم فحسب، بل كانوا يرفضون العلاج وتفتح الجروح من جديد ويموتون من النزيف أو من تلوث الجروح، فيصيرون بلا قيمة لنا."*

اشتهرت حالة عصيان واحدة حالفها النجاح وقام المخرج الأمريكي ستيفن سبيلبرج (1947) بعرضها في فيلمه عن سفينة الرق الإسبانية "أميستاد" (أمريكا 1997) وذلك في شكل عكس الواقع إلى حد كبير.

_____ عصيان العبيد على سفينة "الأميستاد" عام 1839: "نحن بشر من إفريقيا، وولدنا هناك أحرارًا.."

"يتم في بداية عام 1839 أسر زَنجبة بيه (يطلق عليه أيضًا كاسم أول 'سينكوا' أو 'زِنجبة') ذي الخمس والعشرين عامًا وهو ينتمي للجماعة العرقية الماندينكا في سيراليون بغرب إفريقيا ويؤخذ على سفينة رق برتغالية إلى كوبا. يشتريه في كوبا اثنان من الإسبان مع ثلاثة وخمسين من النساء والرجال من سيراليون ويؤجران سفينة الرق "أميستاد" (تعني بالإسبانية الصداقة) وكذلك طاقمهما تحت قيادة القبطان ريمون فيرَر ليأخذهم إلى العمل في المزارع.

ينجح زَنجبة بيه ليلًا بعد المغادرة بوقت بسيط في فك قيوده الحديدية وتحرير الآخرين. يتسللون أولًا إلى البحارة النائمين ويسرقون أسلحتهم، ثم يمسكون بالقبطان فيرَر ويقتلونه هو ورجلًا آخر. يتولى زَنجبة بيه القيادة ويبدو بداية أن البحارة ينصاعون لأوامره ويعودون إلى إفريقيا. ولكن ينجح الإسبانيان – بدرو مونتز وخوسيه رويس – في خداع زَنجبة بيه والأفارقة والإبحار ب "أميستاد" في اتجاه الشمال بدلًا من اتجاه الشرق. يصلون بعد مرور ستين يومًا إلى ساحل بارد يغطيه الضباب – ليس في غرب إفريقيا ولكن في لونج أيسلاند قبل نيويورك.

يعاون الإسبان عساكر من البحرية في أسر الأفارقة المضطربين والمرهقين مرة أخرى. يُتهمون بالعصيان والقتل، كما يطلب الإسبانيان فضلًا عن ذلك استرداد "ملكهما للرق"، وهو مطلب عززته ملكة إسبانيا.

© 2016 Litrix.de

كانت ولاية نيويورك وولايات غربية أخرى قد منعت الرق في هذا الوقت، ولكن لن يكون ذلك الحال على نحو رسمي في الولايات المتحدة بأكملها إلا مع حلول عام 1863. ولكن هناك حركة منذ وقت طويل تسعى لإلغاء الرق (باللغة الإنجليزية: abolition).

حَفَّز المطالبون بالإلغاء الرأي العام ليساند الأفارقة، إذ حالفهم النجاح في العثور على مترجم للهجة الماندينكا ليحضر جلسات المحاكمة المرتقبة. تنحصر حجتهم الأساسية أنه يجب الإفراج عن الأفارقة لأنهم مارسوا حق جميع البشر الأحرار في الدفاع عن حريتهم.

تمتد القضية لأشهر عدة وتصل في نهاية الأمر إلى المحكمة العليا. يتزايد انقسام الرأي العام وتصير قضية "أميستاد" مسرحًا لتأييد ومعارضة الرق.

إنها كلمة مؤثرة التي يلقيها زَنجبة بيه بلهجة الماندينكا وتترجم لتحدث تحولًا في المحكمة أيضًا. يقول الرجل الشاب على سبيل المثال: "نحن بشر من إفريقيا وولدنا هناك أحرارًا. نحن أحرار منذ يوم ولادتنا ونملك حق الحرية. لذلك يجب أن نبقى أحرارًا وليس عبيدًا." إنها حجة ينقلها المدافعون حرفيًا.

ينجح المطالبون بإلغاء الرق في كسب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جون كوينسي أدمز (1767-1848) كمحامٍ للأفارقة في صفوفهم. يلقي كلمة وهو في عمر الثالث والسبعين وموشكًا على فقدان بصره تدوم لثماني ساعات وتؤدي إلى التبرئة النهائية لهؤلاء العبيد سابقًا.

يحصلون على تكلفة العودة إلى سيراليون، يعود مع بداية عام 1842 خمس وثلاثون سيدة ورجلًا من إجمالي ثلاثة وخمسين مسجونًا، ومن بينهم أيضًا زَنجبة بيه. أما الباقون فقد ماتوا أثناء الرحلة الطويلة إلى أمريكا والمحاكمة التي أخذت وقتًا طويلًا."

ألغي الرق في عام 1833 بشكل رسمي في المملكة البريطانية المتحدة، لم يحدث ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية إجمالًا إلا في عام 1863 كنتيجة لانتصار ولايات الشمال على ولايات الجنوب في الحرب الأهلية. لم يحدث ذلك في بعض البلدان إلا في القرن الماضي، في السعودية في عام 1963 على سبيل المثال. ولكن ما زال الرق موجودًا بشكل غير رسمي، يتكرر الكشف عن حالات رق للأطفال وخاصة في آسيا وإفريقيا وشرق أوروبا أيضًا: إنهم أطفال وشباب لوالدين فقيرين في حالة عوز كبيرة ويباعون – في كثير من الأحوال على وعود كاذبة – ويستغلون في عمالة الأطفال والدعارة.

© 2016 Litrix.de

أدت سرقة أكثر البشر صحة وقوة بأعداد تعدت الملايين وعلى مدار قرون عديدة إلى كارثة اقتصادية وإنسانية تفوق حدودها التصور، ولم يتم محاسبة المسئولين عن هذه الكارثة أبدًا. لم يحدث في قارة أخرى أن يجبر هذا العدد من البشر على الترحيل. لقد نشأ أطفال وأحفاد العبيد الأفارقة على بعد آلاف الكيلومترات من وطنهم – بخلاف الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل أيضًا في أوروبا وبونير وكوراسو وغرناطة وجامايكا وهايتي وبورتو ريكو وترينيداد وكوبا وجمهورية الدومينيكان، وكذلك في بليز ونيكاراجوا وباناما وفينيزويلا وكولومبيا والإكوادور وبيرو وسورينام وغيانا.

انتشر في جميع أنحاء العالم بشر أفارقة، نساء ورجال من أصل إفريقي يعيشون خارج القارة.

هل كان منع وقوع جريمة سرقة ملايين البشر ممكنًا؟ ألم يكن هناك شعوب إفريقية أو دول نجحت في مقاومة المستغلين الأوروبيين؟

صفحة 242–245

الربيع العربي في الشمال: نفاد صبر الشباب

الاحتجاج اليائس لمحمد بوعزيزي (26)

بدأ كل شيء بالبائع الجائل الشاب محمد بوعزيزي (1984–2011) من تونس: يموت والد محمد الذي كان عامل بناء وهو في الثالثة من عمره، تتزوج الأم بعد حين من عمه الذي يفقد عمله لأسباب صحية وقت دخول محمد المدرسة. يذهب محمد مع إخوته الخمس إلى مدرسة في الريف تتكون من حجرة واحدة. يحاول منذ بلوغه العاشرة من عمره بكل الأعمال الممكنة في الريف المساعدة في توفير غذاء الأسرة الفقيرة، ويتكرر لذلك غيابه عن دروس المدرسة إلى أن يتخلى تمامًا عن تعليمه في فترة شبابه. (يكتب بعض الصحفيين لاحقًا عن دراسته في الجامعة، ولكن أكدت أخته على أن هذا لبس)

يستأجر حجرة على بعد عشرين كيلومترًا في المدينة الصغيرة سيدي بوزيد آملًا في العثور على وظيفة هناك، كما يلقى طلب التحاقه بالجيش الرفض. يهديه تفكيره أخيرًا إلى جر عربة خشبية يدوية صغيرة عبر منطقة وسط البلد ليبيع عليها الخضراوات. كثيرًا ما كان يعمل لأكثر من أربع عشرة ساعة يومية، ولكنه ينجح في تكوين مجموعة ثابتة من الزبائن وفي توفير دخل شهري يساوي مائة وأربعين دولارًا أمريكيًا. يسد هذا الدخل إيجار الحجرة

© 2016 Litrix.de

وطعامه، فضلًا عن مساعدة أمه في القرية وعمه المريض وأخواته الأصغر عمرًا، بخلاف ذلك يساعد أخته الكبرى في تسديد مصروفاتها الجامعية.

لا يبقى له بذلك ثمن ترخيص تجارته المتواضعة. يتخذ حذره ولكن كثيرًا ما كانت الشرطة توقفه وتفرض عليه غرامات مالية، كما صودرت بضاعته أيضًا. تعد سيدي بوزيد مدينة صغيرة بأربعين ألف نسمة وعلى مسافة مائتي كيلومترًا تقريبًا جنوب غرب العاصمة تونس، يعاني ثلاثون في المائة من البطالة كما ينتشر الفساد بها، ولكن يرفض محمد بوعزيزي دفع الرشاوى.

اشترى في مساء الخميس الموافق السادس عشر من ديسمبر عام 2010 بمبلغ أكثر من المعتاد خضراوات وسدد المبلغ مقدمًا. يتجول في صباح اليوم التالي الموافق السابع عشر من ديسمبر عام 2010 منذ الساعة الثامنة على قدميه بعربته المعبأة بالبضاعة، توقفه الشرطة في تمام الساعة العاشرة والنصف ولكنها تتمادى هذه المرة في رد الفعل: إذ لا تصادر البضاعة فحسب، بل أيضًا عربته الخشبية والميزان الكهربائي الجديد الذي اشتراه مؤخرًا. تقود الحملة في هذا اليوم ضد الباعة الجائلين موظفة من البلدية في الخامسة والأربعين من عمرها، تسخر منه وكما يدعي بعض الشهود لاحقًا تتعدى عليه بالضرب.

ولكن لا يتخلى محمد عن قضيته: يذهب في حيرة من أمره إلى مبنى البلدية ليقدم شكوى رسمية إلى المحافظ وليطالب على الأقل *بممتلكاته*: العربة والميزان الباهظ الثمن. لا يبدي المحافظ ولا أي من الموظفين الحاضرين استعدادهم للقائه، وحينما يرفض الاستسلام يُطلب له الشرطة التي تصرفه وتمنعه من الدخول مرة ثانية.

النص بجانب الصورة: طابع تذكاري تونسي لمحمد بوعزيزي صدر في نفس عام الوفاة 2011 ويظهره هو وعربته المتواضعة لبيع الخضار.

يذهب محمد إلى محل قريب ويشتري زجاجتين من مادة تخفيف الألوان، بعد مرور ساعة على إيقاف الشرطة له في المرة الأولى – أي في الساعة الحادية عشرة والنصف – يعود إلى مدخل مبنى البلدية ويصيح: "مِمَّ عساي أن أعيش؟" يسكب بعد ذلك محتوى الزجاجتين فوق رأسه وجسده ويشعل في نفسه النار.

هناك جموع هائلة من البشر في ظهيرة هذه الجمعة في الساحة أمام مبنى البلدية لسيدي بوزيد، يحملق معظمهم في فزع إلى جسد الشاب المحترق، يحاول أحدهم دون جدوى إطفاء النار بالماء. يفقد محمد بعد قليل وعيه ووقت وصول عربة الإسعاف يكون تسعون بالمائة من جلده قد احترق.

© 2016 Litrix.de

إنها بمثابة معجزة أنه ما زال على قيد الحياة، حتى مع عدم إفاقته من الغيبوبة إلى الأبد، يتم نقله مرتين إلى مستشفيات متخصصة. لا ينتشر خبر إشعاله النار في نفسه في بلده فحسب، بل في العالم العربي بأكمله. يتعاطف الكثير من الشباب في دول شمال إفريقيا والشرق الأوسط مع حالة محمد: فهم مثله عاطلون أو يحصلون على القليل من وظائف سيئة، يرون مثله سلطة الدولة متعجرفة وفاسدة.

سريعًا ما يشعر الرئيس التونسي زين العابدين بن علي (ولد في 1936) والذي أمضى أكثر من ثلاث وعشرين سنة في الحكم أن المسألة أكبر من احتجاج بائع جائل مسكين بمراحل: يطلب تصويره تلفزيونيًا أثناء زيارته لمحمد بوعزيزي الفاقد لوعيه في العناية المركزة، والذي لم يكن حتى هذه اللحظة معروفًا للرأي العام. أما الآن فتبدأ بشكل يومي في أنحاء متفرقة من البلاد تجمعات احتجاجية ضده وضد قيادته الفاسدة للدولة، خاصة من قبل شباب في عمر محمد.

يتوفى محمد في مساء الرابع من يناير عام 2011 متأثرًا بجراحه، يحضر أكثر من خمسة آلاف شخص جنازته التي كانت تحت حراسة مشددة من الشرطة. ومع ذلك ردد البعض عبارات مثل: "نبكيك اليوم يا محمد، ولكن قريبًا سيبكي من قتلك." يتظاهر في الأيام التالية مئات الآلاف من الشباب في جميع أنحاء البلد، أيضًا في العاصمة تونس.

يعلن الرئيس بن علي يوم الثالث عشر من يناير عن أنه لن يترشح في الانتخابات الرئاسية القادمة عام 2014وأنه سيسمح على الفور بحرية أكبر للصحافة. ولكن قرر جيش البلاد في هذا التوقيت إسقاطه، بعد يوم واحد ومرور عشر أيام على دفن محمد سمح الجيش للرئيس بن علي وزوجته وأبنائه الثلاثة بالهروب من البلاد قبل إغلاق المطار.

يطير بن علي أولًا إلى فرنسا التي ترفض السماح له بالهبوط، ثم تسمح له المملكة العربية السعودية المحافظة باللجوء إلى أرضها حيث يعيش هناك حتى اللحظة الراهنة. يصدر في العشرين من يونيو عام 2011 حكم غيابي من محكمة تونسية يقضي بسجنه هو وزوجته لمدة خمس وثلاثين سنة بتهمة سرقة الشعب والحيازة غير القانونية لأموال ومجوهرات قيمتها ملايين الدولارات الأمريكية. يتنفس معظم التونسيون — الشباب والكبار– الصعداء لأنهم نجحوا في القيام بثورة غير ملطخة بالدماء. لقد بدأ ما سمي لاحقًا بالربيع العربي.

© 2016 Litrix.de

صفحة 260–265

قلعة أوروبا: المشاركة أم القتل؟

لم نصل عالميًا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945إلى هذه الأعداد الهائلة من اللاجئين: تَرَكَ نحو خمسين مليون إنسان موطنهم، آخذين أعز ما يملكون في حدود، ليحملوها في رحلة الهروب من الجوع والحرب والاضطهاد. نصفهم أطفال لم يتخطَ عمرهم الثامنة عشرة. لقد تخلوا عن كل شيء وخاطروا بحياتهم للنجاة مما هو أسوأ.

_____ "يساوي هذا صيد صياد سنغالي يخرج كل يوم بمركبه لمدة خمسة وخمسين عامًا..." – ولد مصطفى ديالو عام 1965 في كاولاك بالسنغال ودرس في البداية الآداب الألمانية في داكار ولاحقًا في النمسا وألمانيا وفرنسا، دَرَّسَ في جامعة بادربورن ويعمل اليوم كمترجم وناشر (مثلًا كناشر وكاتب مشارك لكتاب "المتنبئون في إفريقيا"، 2014."

"أريد أن أبدأ بقصة تمثل العديد من قصص اللجوء من إفريقيا، إنها تحكي عن قصة قرية نديضيوف في موطني السنغال، كان عدد سكان القرية وقتها نحو مائة وخمسة وستين فردٍ.

تجمع منذ خمس سنوات ثمانية وأربعون منهم، معظمهم من الشباب، وقرروا بناء مركب. كانوا جميعًا من قرية الصيادين هذه أو من المناطق المحيطة بها، ولم يرغبوا في الاعتماد على بائعي البشر المعروفين. بعد عمل دام لشهور انطلقوا في البحر في اتجاه إسبانيا. تجمعت القرية بكامل عددها على الشاطيء، لأن كل أسرة كان لها عضو على الأقل من أقاربها ضمن طاقم المركب. لم يصل هذا المركب أبدًا إلى أوروبا. لم تحتفل هذه القرية بعدها بأي شيء، لا حفل عرس ولا تعميد، ولا أي شيء قد يكون سببًا للفرح...إنها قرية مجروحة.

السؤال عما حركهم يثير اهتمامًا أكبر من السؤال عما كانوا يبحثون عنه في أوروبا، لماذا هذا الرحيل الجماعي؟

اشترى الاتحاد الأوروبي قبلها بعدة سنوات حقوق الصيد في المياه السنغالية. ما ترتب على ذلك للصيادين المحليين يمكن قراءته من الأرقام التالية:

© 2016 Litrix.de

يساوي حصيلة صيد سفينة أوروبية بتقنية شبكة الترولة في اليوم ما يصطاده صائد سنغالي بمركبه لمدة خمسة وخمسين عامًا، دمرت هذه الاتفاقية أساس الحياة لقرى بأكملها."

لا يصل معظم اللاجئين الأفارقة أبدًا إلى الدول ميسوري الحال: ست وثمانون بالمائة من اللاجئين على مستوى العالم تأخذهم دول فقيرة أخرى، كثيرًا ما تكون دول جوار والتي لا يعد حالها أفضل بكثير، ولكن تبدو هناك التهديدات المباشرة أقل تأثيرًا. كثيرًا ما يظلون هناك لسنوات في خيام ضخمة حالتها مزرية، في أضيق الأماكن مع آلاف بل وعشرات الآلاف من اليائسين الآخرين.

يصل في الوقت الحالي معظم اللاجئين من إفريقيا من دول الصومال وجنوب السودان وجمهورية الكونغو الديمقراطية وجمهورية إفريقيا الوسطى، تتزايد الأعداد القادمة من شمال إفريقيا والتي تحول فيها الربيع العربي إلى خريف. قلة قليلة من هؤلاء جميعًا تصل إلى أوروبا . يصل من ملايين اللاجئين العديدة نحو مائة ألف سنويًا إلى ساحل شمال إفريقيا، وأكثر من أربعين ألفٍ بقليل يحاولون من هناك مواصلة رحلة الهروب إلى إسبانيا (أو المدن التابعة لها سبتة وميلية) أو يركبون مراكب ضعيفة ومزدحمة إلى جنوب فرنسا وإيطاليا واليونان.

أعداد الموتى السنوية ليست مؤكدة: بحسب منظمات حقوق إنسانية مختلفة غرق في عام 2013 نحو 600 لاجيء في مياه البحر الأبيض المتوسط، ارتفع عددهم في عام 2014 إلى 3400. الأعداد في تزايد: غرق في الفترة من يناير وحتى أبريل 2015 نحو 1700 شخص، بينما توفي في ليلة واحدة، من الثامن عشر إلى التاسع عشر من أبريل 900 شخص على الأقل. إن أعداد البشر الذين حاولوا الهروب عام 2014 من شمال إفريقيا إلى جنوب أوروبا صُحِحَت لتصير 175000. لا نعرف عادة إلا عن الكوارث التي أثارت الضجة الكبرى، مثل التي حدثت يوم الثالث من أكتوبر عام 2013 عند جزيرة لامبيدوزا الإيطالية.

_____ شهادة مواطنة عجوز من لامبيدوزا ليلة الكارثة في الثالث من أكتوبر 2013، حينما جرى إنقاذ 155 لاجئًا فقط من إجمالي 545 وغرق 390 لاجئًا: "كانوا على مقربة مِنَّا عند الساحل، لدرجة أننا سمعنا صراخهم في الظلام لوقت طويل، ولكن بُعد المسافة لم يسمح برؤيتهم، إلى أن تلاشى الصراخ وانتهى."

© 2016 Litrix.de

تقع الجزيرة الإيطالية لامبيدوزا على مسافة 130 كيلومترًا من الساحل التونسي، أما المسافة إلى صقلية فتبلغ نحو205 كيلومترات. إنها جزيرة صغيرة مساحتها فقط 20 كيلومترًا مربعًا: حوالي نحو تسع كيلومترات طولًا في اتجاه الشرق الغربي ونحو ثلاث كيلومترات عرضًا.

يبلغ عدد السكان الدائمين نحو حوالي 6500 نسمة فقط. يتضاعف هذا العدد في الأشهر الصيفية من خلال المصيفين. يعيش معظم سكان لامبيدوزا إلى جانب السياحة من صيد الأسماك وإنتاج السمك المعلب. إنهم في الأغلب بشر كادحون وطيبو القلب ولا يميلون للتطرف اليميني، إذ طردوا شخصيات سياسية مثل الفرنسية مارين لوبين (ولدت في عام 1968) حينما حاولت استغلال المشاكل الموجودة في الجزيرة لصالح دعاية مضادة للأجانب.

يتفهم الكثير من سكان الجزيرة أزمة اللاجئين الذين وصل منهم نحو حوالي 25000 إلى شواطئها حتى الآن. خرج في يناير من عام 2009 بضع مئات من معسكر مخصص لهم، يسع 600 شخص وسجن داخله 2000 شخص، فتضامنوا مع هؤلاء اللاجئين في التظاهر ضد سياسة روما وبروكسل التي تسيء استغلالهم معًا كـ"نقطة مراقبة لقلعة أوروبا" .

لم تكن كارثة ليلة الثالث من أكتوبر عام 2013 هي الأولى، بل الأبشع: كان على متن المركب ذي العشرين مترًا من الطول 545 لاجئًا، معظمهم من إريتريا والصومال وغانا، كانوا قد غادروا معًا الساحل الليبي الذي يقع على بعد 300 كيلومتر. يشعل القبطان بعد عطل في المحرك النار في غطاء ليعطي إشارة استغاثة، ولكن سريعًا ما يفقد السيطرة على النيران، وينتشر الذعر على متن المركب فيركض عدد كبير من الركاب إلى ناحية واحدة، مما يؤدي إلى إنقلاب المركب. يغرق 390 طفلًا وسيدة ورجلًا، لأن معظمهم لم يكن يعرف السباحة.

الكثير منهم كان قد ادخر طويلًا لرحلة الهروب هذه، اتضح لاحقًا أن مهربي البشر قد حصلوا على كل شخص بالغ ما وصل إلى 3000 دولار أمريكيًا. يُتهم القبطان التونسي بالقتل، كما يقدم أحد وكلاء النيابة العامة بلاغًا ضد الناجين يتهمهم بالهجرة غير الشرعية ولكن يتم سحبه لاحقًا بسبب الاحتجاجات العديدة.

_____عمدة لامبيدوزا السيدة جيوزوبينا نيكوليني (ولدت في عام 1961) والتي كانت قد دعت إلى حقوق إنسان تحق للاجئي المراكب، قالت في تصريح تليفزيوني:

© 2016 Litrix.de

"ليست هذه أول مأساة، فقط لم يعرف العالم عن معظم الكوارث الأخرى. لأن المسألة تتعلق دومًا ببشر فقراء. غرق منذ وقت قريب أحد عشر إفريقيًا، ولم يُذكروا في أي تقرير. تخيلوا أن سفينة فاخرة تعرضت لأزمة في البحر وغرق أحد عشر من الركاب الأغنياء. ستذكرهم جميع المحطات الإخبارية حول العالم. يجب أولًا أن يموت 400 شخص من الفقراء حتى يجدوا في مرة هذا الاهتمام الدولي."

كم أنها محقة! وتحقق قولها بعدها بقليل حينما أبحر مجددًا مركب لاجئين يوم الثالث عشر من أكتوبر عام 2013 بمائتي وأربعين راكبًا من مالطا إلى لامبيدوزا، وانقلبت وغرق اربعة وثلاثون شخصًا. ولكن نجحت العمدة نيكوليني قبل حلول نهاية أكتوبر في إقناع الحكومة الإيطالية ببرنامج جديد لصالح إنقاذ اللاجئين جديد تحت اسم "مارة نوستروم"[2] وذلك بالتعاون بين البحرية ورقابة السواحل ومنظمات مدنية، لم ينجح هذا البرنامج اليوم في إنقاذ آلاف اللاجئين فحسب، بل أيضًا في رقابة أفضل على تهريب البشر غير القانوني. تؤكد العمدة نيكوليني في حوارات مختلفة على ما يلي: *"يجب التوقف عند تكرار وقوع الكارثة عن مجرد تقديم الإسعافات الأولى. هؤلاء البشر يخاطرون بحياتهم، لأن الكارثة التي يعيشونها أهوالها أكبر بكثير. يجب أن نعي ذلك في أوروبا."* كثيرًا ما تتحد أسباب اللجوء مع اتفاقيات اقتصادية دولية كما وصفها مصطفى ديالو في عرضه عن القرية السنغالية، إذ تعد تلك الاتفاقيات هي المسئولة جوهريًا عن ترك بشر في حالة شدة لأوطانهم. في كثير من الأحوال يكون نفس السياسيين هم من يدافعون عما يسمى بمصالحهم الوطنية "فقط"، ولاحقًا يطالبون بحزم أقوى "بمحاربة سيول اللاجئين".

تؤكد منظمات حقوق الإنسان أيضًا على أن الفقر هو الذي تعاقبه سياسة الانغلاق التي يتبعها الاتحاد الأوروبي، وليست الجنسية بالدرجة الأولى: يذكرون كمثال سياسة التأشيرات التي تتبعها العديد من الدول الأوروبية والتي تمنح الأغنياء الإقامة دون مشاكل. ففي إسبانيا والبرتغال على سبيل المثال يحصل أي شخص على تصريح إقامة أوروبية إذا استثمر 500000 يورو على الأقل في امتلاك العقارات والأصول. يحصل في المجر أي شخص على تأشيرة شنجن إذا ما قدم للدولة قرضًا دون فوائد لا يقل قيمته عن 250000 يورو.

[2] أعلنت الحكومة الإيطالية بعد مرور عام واحد – نهاية أكتوبر عام 2014 – انتهاء برنامج "مارة نوستروم" والذي أنقذ منذ أكتوبر 2013 نحو مائة وخمسين ألف شخص من أهوال البحر – أي نحو أربعمائة شخص يوميًا. أعلن وزير الداخلية الإيطالي في هذا السياق أن "إيطاليا قد قامت بدورها". يجري استبدال "مارة نوستروم" ببرنامج الاتحاد الأوروبي "تريتون" الذي يعد أصغر حجمًا ويدير عملياته من السواحل الأوروبية فقط، كما لا يتحرك إلا بعد حدوث استغاثة: أي لا يتحرك من تلقاء نفسه. تتوقع منظمات الدفاع عن اللاجئين أن أعداد الموتى ستتضاعف.

© 2016 Litrix.de

في زيارة إلى لامبيدوزا في يوليو من عام 2013 تحدث البابا فرانسيسكوس (مولود في عام 1936) عن "عولمة اللامبالاة"، كما مدح بعد كارثة الثالث من أكتوبر بوضوح سكان لامبيدوزا وعمدتها الذين أظهروا "لطفًا إنسانيًا" بسيطًا بـ "تضامنهم" مع كل هؤلاء اللاجئين على جزيرتهم الصغيرة.

© 2016 Litrix.de